

بطران مانب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية من القول بفناء النار

شاكربن توفيق العاروري

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . . أما بعد

فهذه رسالة سطرت فيها ما كان يدور في خلدي منذ زمن من براءة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، من القول بفناء النار ، على خلاف ما اشتهر عنه في أوساط بعض أهل العلم ، وبعد دراسة مستفيضة متأنية للوقوف على الحق في صحة نسبة هذا المذهب لشيخ الإسلام ابن تيمية .

والذي أثار حفيظتي وجعلني أشمر عن ساعد الجد في بيان المسألة أن الناس قديما وحديثا وقفوا من شيخ الإسلام بين قادح ومادح ومعتذر وناصر وكلهم يدور في مجال الخطأ والصواب ، وشذ بعضهم بتكفيره ، رحمه الله ، فأذهب الله قولهم ومات بموتهم حتى نبتت نابتة سوء بعصر قل فيه الورع وذهبت فيه الخشية إلا من رحم الله ، فشنعوا القول عليه فيما نسب إليه من القول بفناء النار ؛ فنالوا بالسنتهم منه من غير تقوى ، وقذعوه وهم بما رموه به أولى ، فلزم بيان عوار قولهم وإلقاء ما رموا به شيخ الإسلام بساحتهم .

فتدبرت ما قالوا عما نسبوه إليه في هذه المسألة فلم أجد في أقوالهم أي دليل صحيح أو نقل صريح يدل على أن ابن تيمية ، رحمه الله ، قال ذلك

القول متخذه مذهبا. فعلمت أنها مكيدة إبليس سد بها قلوب أهل البدع عن رؤية الحق.

فتبعت أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - فيما استطعت - حتى انجلي لي قوله في هذه المسألة، فما وجدت له نصا واحدا يدل على قوله بفناء النار ، بل وجدت بحمد الله عكسه ، وإليك البيان.

أقوال شيخ الإسلام ..

أولا: قال رحمه الله في كتابه بيان تلبيس الجهمية (١٥٧/١)

« ثم أخبر ببقاء الجنة والنار بقاء مطلقا ، ولم يخبرنا بتفصيل ما سيكون بعد ذلك، بل إنما وقع التفصيل إلى قيام القيامة واستقرار الفريقين في الجنة والنار وذكر ما فيهما من الثواب والعقاب.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاما للإمام الأشعري - نقلا عن المقالات - مؤيدا له ، واختلفوا أيضا هل لأفعال الله سبحانه آخر أم لا آخر لها ؟ على مقالتين ؛ فقال الجهم بن صفوان: إن لمعلومات الله ومقدوراته غاية ونهاية، ولأفعاله آخر، وإن الجنة والنار يفنى أهلها حتى يكون الله آخر لا شيء معه كما كان أولا لا شيء معه .

وقال أهل الإسلام جميعا ليس للجنة والنار آخر ، وأنهما للأزل باقيتان، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في الجنة يتنعمون ، وأهل النار في النار يعذبون، ليس لذلك آخر ولا لمعلومات الله ومقدوراته غاية ولا نهاية .

وقال شيخ الإسلام: « ثم إن جهما وأبا الهذيل منعا ذلك في الماضي والمستقبل ، ثم إن جهما كان أشد تعطिला فقال بفناء الجنة والنار . »

فأنت ترى أخا الإيمان أن كلامه فيها واضح جلي ، والقول ببقاء الجنة كالقول بفناء النار ؛ فهما صنوان لا يفترقان ، وكل ما يقال في هذه وأهلها يقال في الأخرى وأهلها.

ثانيا: تصريح شيخ الإسلام بخلود أهل الكفر في النار

ذكر شيخ الإسلام أن مذهب أهل السنة والجماعة في الفاسق هو استحقاقه للعذاب ودخوله النار، لكنه لا يبقى فيها بقاء أهل الكفر ، لأنه من أهل التوحيد؛ وذلك خلافا للمعتزلة ومن ذهب إلى قولهم ومن قبلهم من الخوارج الذي يكفرون العباد بارتكاب المعاصي ويوجبون عليهم الخلود في النار؛ فقال رحمه الله: «ولا يسلبون - أي أهل السنة والجماعة - الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة » وزاد هذا القول وضوحا في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وسيجنبها الأشقى ﴾ ، فقال: «جواب آخرين قالوا لا يصلونها صلي خلود وهذا أقرب. وتحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائما . فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي ليس هو الصلي المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود.».

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله - في درء تعارض العقل والنقل - سليمان بن داود الهاشمي وكلامه في هذه المسألة ؛ ناصرا له ومبينا أن هذا مذهب السلف: كعبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن إدريس ويحيى بن سعيد القطان، فقال: كما قال سليمان بن داود أحد أئمة الإسلام نظير الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي بكر بن أبي شيبة وأمثالهم قال: « ومن قال القرآن مخلوق فهو كافر وإن كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال (أنا ربكم الأعلى) من هذا «.

وقرر رحمه الله أن أهل التوحيد ممن حازوا على ذرة أو ذرات من الإيمان في قلوبهم يخرجون من النار ولا يخلدون فيها خلود أهل الكفر والشرك فقال: « وفي رواية « مثقال دينار من خير ثم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، وفي رواية « من خير » ، ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو خير. وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي - ﷺ - يدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلا «.

ثالثا: حكمه على القول بفناء الجنة والنار بالفساد:

حكم شيخ الإسلام على مقدمات كلامية بالفساد وأظهر لوازمها. ومن جملة رده قوله: « وإما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل كما التزم بهم لأجلها بفناء الجنة والنار ، والتزم أبو الهذيل انقطاع حركات أهل الجنة » .

رابعا: تصريحه بخلود النار ونقل الاتفاق على ذلك

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث أنس بن مالك عن النبي - ﷺ - أنه قال: (سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء: النار ، وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي، والعرش) ؛ فهل هذا حديث صحيح أم لا ؟ فأجاب: « هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي - ﷺ - وإنما هو من كلام بعض العلماء ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين: كالجهنم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم ؛ وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها لما في ذلك من الدلالة على بقاء الجنة وأهلها ، وغير ذلك مما لا تتسع هذه الورقة لذكره » .

سبب نسبة هذا القول لشيخ الإسلام ورده:

إن القول بفناء النار أدخل على شيخ الإسلام من جهة تلميذه ابن القيم ، رحمه الله ، الذي كان يتبنى القول بالفناء ونصره نصرا أجلب عليه بخيل الأدلة ورجلها ، فظن الناس أن هذه المسألة مأخوذة من شيخه ، ولولا ذلك لما قال بها ابن القيم ولما خرج عن مذهب شيخه فيها.

وهذا كلام قائم على الظن والتخمين، والحق خلافه ، على ما ستره إن شاء الله في أثناء الرد على شبه الناسيين.

عاصمة من كل قاصمة :

قال المؤلف عفا الله عنه : « لم يثبت عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله القول بفناء النار البتة » ، بل ثبت عكسه ، ومن عكس عليه انتكس ولا حجة له فيما ذهب إليه إلا الوهم والظن الذي لا يغني من الحق شيئا . بل إن القول في هذه المسألة وتفصيلها والذي جمع أدلتها وصححها هو ابن القيم الجوزية شمس الدين أبي عبدالله ، رحمه الله تعالى وغفر له . ولم ينسب ابن القيم هذا القول لشيخه ابن تيمية في كلامه على هذه المسألة ولا في موطن واحد من المواطن الكثيرة التي تعرض فيها لهذه المسألة . بل إنه لم يتعرض للذكر شيخه إلا في مواطن معدودة في أثناء حديثه عن فناء النار ، سأذكرها لك أخي في الله بعد قليل .

لكن تدبر معي قول ابن القيم رحمه الله في كتابه (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتنزيل) : « وكنت قد سألت شيخ الإسلام ، قدس الله روحه ، فقال لي هذه المسألة عظيمة كبيرة ولم يجب فيها بشيء ، فمضى على ذلك زمن حتى رأيت في تفسير عبد بن حميد الكشي بعض تلك الآثار التي ذكرت فأرسلت إليه الكتاب وهو في مجلسه الأخير ، وعلمت على ذلك الموضع ، وقلت للرسول قل له هذا الموضع يشكل عليه ولا يدري ماهو . فكتب فيها مصنفه المشهور رحمه الله عليه ، فمن كان عنده فضل علم فليحدثه ؛ فإن فوق كل ذي علم عليم ، وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ووجه الدلالة في هذه العاصمة أمران يدلان على عدم قول شيخ الإسلام بفناء النار .

الأول : أن المصنف الذي ذكره ابن القيم لا يوجد دليل واحد على أن فيه القول بفناء النار - بل الأصل عدم القول لأمرين ، أحدهما ما مر بك من أقواله في هذه المسألة ، وثانيهما أن الكتاب الذي ذكره ابن القيم قد قال عنه شيخنا محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله في الضعيفة (٧٥ / ٢) : «ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قاعدة في الرد على من قال بفناء

الجنة والنار ، لم نقف عليها ، وإنما ذكرها الشيخ يوسف بن عبد الهادي في فهرسته (ق/٢٦ / ١) .

وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فإن عامة من عاصره وناظره - وكانوا خصوما للداء له - لم يأخذوا عليه القول بهذه المسألة ، بل كان الآخذ عليه بمسائل الصفات وتحديث العوام بها ومسائل الطلاق وغيرها من المسائل ، ولم يذكر عن واحد منهم أنه رمى شيخ الإسلام بهذا القول ولا أشاروا إشارة ولو خفية تدل على أنه يتبنى هذا القول .

ولو كان قالها لكان لحاسديه ومبغضيه أن يرموه بوبيل من القذائف التي تسفك دمه ، ولما لم يكن ذلك علمنا بحمد الله عدم قوله بها .

الثاني : أن ابن القيم رحمه الله قال : « وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » ؛ فلو أن شيخ الإسلام قال بفناء النار لأوضحه ابن القيم بصريح العبارة ولما احتاج إلى أن يذكر نفسه ومذهبه دون اعتماده على شيخه أو الإلماح إلى تأييده فيها .

فصل

مع كتاب " هادي الأرواح إلى بلاد الأفرح "

لقد جمع ابن القيم رحمه الله في هذا الكتاب جل أدلته وبراهينه على صحة ما ذهب إليه في مسألة فناء النار، ولم يذكر فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلا في مواضع محدودة، وليس في واحد منها دليل يدل على أن ابن تيمية نصر هذه المسألة . وإليك البيان .

الموضع الأول: قال ابن القيم في ص ٢٥٦ من هذا الكتاب: « وفيه الرد على الجهم بن صفوان القائل بامتناع وجود مالا يتناهى من الحوادث ، وخلاصة قولهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنع في المستقبل ؛ فدوام الفعل ممتنع عنده على الرب تبارك وتعالى في المستقبل كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي، ووافقه عليه شيخ المعتزلة أبو الهذيل العلاف، لكنه قال إن هذا يقتضي فناء الحركات لكونها متعاقبة شيئاً بعد شيء ، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة » .

فرد شيخ الإسلام هذا الكلام رداً عنيفاً . وخلاصة قوله أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين ، والذين قالوه إنما نقلوه عن قياس قاسوا - كما اشتبه أصله على كثير من الناس - فاعتقدوه حقاً وبنوا عليه القول بخلق القرآن ونفي الصفات أهـ .

فأنت ترى في الموضوع الأول من ذكر شيخ الإسلام أنه أظهر معتقده في مسألة فناء الجنة والنار وجعل اعتقاد ذلك بدعة محدثة .

الموضع الثاني: قال في (ص ٢٥٩) : « وأما أبدية النار ودوامها ؛ فقال شيخ الإسلام فيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين » أ . هـ .

قلت: وهذا الموضع الثاني لا دليل فيه على قوله بفناء النار، بل غاية ما في هذا الكلام ذكر اختلاف الناس قديما في هذه المسألة.

الموضع الثالث: لقد ذكر ابن القيم عن شيخ الإسلام قولاً لبعض من يفسر هذه الآيات ، وهي قوله تعالى: ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ ، ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ ، ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ، وقال: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ قول من يقول : « يخرجون منها وتبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب » فرده رداً صريحا وقال: « القرآن والسنة أيضا يردان هذا القول كما تقدم ».

الموضع الرابع: قال ابن القيم: « السابع قول من يقول يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى ، فإنه جعل لها أمرا تنتهي إليه ثم تقضى ويذول عذابها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ؛ وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور . فذكر الآثار بأسانيدها ، وأخذ ابن القيم يدلل على صحة هذا القول ، وحشد أدلته وكل ما استطاع لينصر هذا القول ، فظن بعضهم - لاتصال كلامه بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية - أنه له وليس كذلك ؛ إذ إن انتهاء كلامه عند قوله: «وأبي سعيد وغيرهم»، وما بعده كله لابن القيم ، وهو أسلوب في الاستدلال ، وليس بأسلوب شيخ الإسلام من ذكر الأسانيد وسردها وليس هذا بأسلوب شيخ الإسلام في الاستدلال على مسائله ، فهذه أربعة مواضع في الحادي لا يدل واحد منها على أن قول شيخ الإسلام ابن تيمية بفناء النار هو مذهبه.

مع الصنعاني في كتابه رفع الأستار:

قد يحتج بعضهم بأن الشيخ محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني قد رد على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية في كتابه (رفع الأستار

لإبطال أدلة القائلين بفناء النار) ؛ مما يدل على أن ابن تيمية قاله ويؤيده وينصره .

قلت: وهذا محض تخمين؛ إذ إن الصنعاني نفسه قال: « ولم أقف على غير ما في حادي الأرواح ، ولعل الله سبحانه يعين بالوقوف على مؤلف الذهبي والسيد محمد بمنه وفضله »^(١) .

قال: « ولكنه استوفى المقال فيها العلامة ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح إلى ديار الأفراح) نقلا عن شيخه العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية ، فإنه حامل لوائها ومسند بنائها وحاشد خيل الأدلة فيها ورجلها ودقها وجلها وكثيرها وقليلها »^(٢) .

قال مؤلفه: وهذا كلام لم يأت فيه الصنعاني رحمه الله بنص يدل على صحة ما ذهب إليه ، وإنما هو منه توقع وظن ، وسببه أنه لما كان ابن القيم تابعا لشيخه في الغالب ، انتقل الذهن واتسعت دائرته حتى بلغ لشيخ الإسلام بلا خلاف .

وقد كنت ذكرت كلاما فيما سبق يدل على أن ابن القيم هو أول من عرض على شيخ الإسلام هذا الرأي وأدلته ، ولم يأتنا نص قاطع عنه بأنه قال به إلا التخيل والتوهم .

وكل ما في الحادي هو من كلام ابن القيم وجمعه وترتيبه ، ولم يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية إلا في المواضع الأربعة التي مرت بك . وقد نظرت في كتاب الأمير الصنعاني رحمه الله فما وجدت في كل موطن وقفت عليه أي دليل على أن شيخ الإسلام قال بهذا القول ، وإنما كان نسبة القول لشيخ الإسلام هو ما ذكرت ، وقد كان شيخنا محمد ناصر الدين الألباني ، حفظه الله ، قد تبعه في أكثر من موضع عند نسبة هذا القول لشيخ الإسلام ، فيقول: « هذا ليس من كلام شيخ الإسلام وإنما هو لتلميذه ابن القيم » .

(١) رفع الأستار: ص ٦٢ .

(٢) رفع الأستار: ص ٦٣ .

مع السبكي في رسالته الموسومة بـ « الاعتبار ببقاء الجنة والنار »

لقد زعم جامع الرسائل السبكية أن هذه الرسائل كلها في الرد على شيخ الإسلام ابن تيمية ، وسمى هذا المجموعة في الرسائل بـ (الرسائل السبكية في الرد على ابن تيمية) . وجعل الرسالة الموسومة بـ (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) الرسالة الخامسة من هذا الكتاب .

وقد أعظم المقدم الفرية على السبكي في أن هذه الرسالة نص في الرد على ابن تيمية . ولما كان معلوما أن الفقيه الشافعي تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي الكبير حديد اللسان على شيخ الإسلام ابن تيمية كثير الطعن فيه والعيب عليه ، بمسائل عديدة يذكره فيها باسمه ، ليزيد في زعمه التشنيع والتحذير منه ، فلما كان هذا حاله دوما وكنت قد نظرت في هذه الرسالة فلم أجد فيها كلاما له يذكر فيه ابن تيمية - مدحا ولا ذما - فعلمت أنها وضعت على غيره، حتى وإن كان ابن القيم، إلا أنها ليست على شيخه .

ودليلي على ذلك ما قاله السبكي نفسه (ص ٢٠٠) من الكتاب المذكور: « فهذه الآيات التي استحضرها في بقاء الجنة والنار ، وبدأنا بالنار ؛ لأننا وقفنا على تصنيف لبعض أهل العصر في فنائها » . فهذا هو فكر صاحب التصنيف ، والجزم بعد التذكير وعدم التعين ظلم . والدليل على أن الرد كان على كتاب حادي الأرواح ، الذي هو لابن القيم ، قول السبكي (ص ٢٠١): « وقد وقفت على التصنيف المذكور وذكر فيه ثلاثة أقوال في فناء الجنة والنار » ؛ أحدها: أنهما تفتيان ، وقال إنه لم يقل به أحد من السلف . والثاني: أنهما لا تفتيان . والثالث: أن الجنة تبقى والنار تفتنى . ومال إلى هذا واختاره وقال إنه مذهب السلف » . قلت: وهذا كلام ابن القيم في الحادي (ص ٢٥٥) ، فقال: « وهذا موضع اختلف فيه المتأخرون على ثلاثة أقوال ؛ أحدها: أن الجنة والنار فانيتان غير أبديتين كما هما حادثتان فهما فانيتان . والقول الثاني: أنهما باقيتان دائمتان لا تفتيان أبدا . والثالث: أن الجنة باقية والنار فانية » .

فخرج بهذا البيان شيخ الإسلام رحمه الله من هذه المسألة ، والحمد لله رب العالمين .

واعلم أخوا الإيمان أن أظهر ما في الأمر أن المناظرات العلمية واللقاءات
الفقهية كانت دائمة متصلة بين ابن القيم رحمه الله والسبكي ، وذلك كما
قال ابن كثير في البداية والنهاية .
هذا ما تيسر لي جمعه وتدوينه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

